

إعداد

رياض بن سليمان السلطان

مصدر هذه المادة :







بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضـــل لـــه ن ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، واشهد أن محمداً عبده ورسوله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾** [آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

أما بعد:

فإن الناظر إلى سير أعلامنا الأوائل، وعلمائنا المتقدمين، فضلا عن القرون المفضلة من الصحابة والتابعين، يجد أن لأقوالهم وأفعالهم تأثيراً في النفوس، وأنها تعمل عملها في القلوب، إنهم بشر ممن خلق، ولكنها العلاقة مع الله، والأنس بجواره، وكثرة دعائهم وصـــلاتهم وطرقهم لبابه، ولكنها أرواح تعلقت بخالقها، وعرفت حق بارئهـــا جل وعلا ، تمكنت حلاوة الإيمان إلى ســـويداء قلـــوبهم، وتحلـــل

مهجهم برد اليقين، فتجد أن سيرهم بيضاء مشرقة، جهاد ودعــوة وبطولات ومواقف مشرفة، في سبيل نصرة هذا الــدين، يؤصــر أحدهم بالأغلال، ويكبل بالحديد، ويوثق بــالقيود، ويــودع في الظلمات في غياهب السجون، يستبدل أحدهم بظهر الأرض بطناً، ويستبدل الغنى وزهرة الحياة الدنيا بالبساطة والكفاف، زهداً منــه وورعاً، يجلد أحدهم كما يجلد البعير، ويعذب عــذاباً لا تتحملــه عشرات الرجال، فيعفو ويصفح، ويكظم الغيظ، ويكــبح جمــاح النفس ، يتأسى بأفضل الخليفة وإمام هذه الأمة صلوات الله وسلامه عليه، كل ذلك بسبب الطمأنينة والوقار اللذين حلا في قلوبهم.

* **أخي المسلم**: ها هو ابن تيمية عليه رحمة الله تدور من حوله الأزمات، وتحل به النكبات، ويضايق من قبل الخاصة والعامة، يودع السجن، ويحبس وراء الحديد والقضبان، ثم يقول قولته العصــماء ، تحرك بها الجنان قبل اللسان، ولحظتها النواظر قبل أن يتكلم بها فاه، خلدت عبر الزمان، وتواتر نقلها عبر القرون والأيام، عــدة كــل مصلح وداعية، ومبدأ كل جرئ في الحق لا يخاف في الله لومة لائم: «ماذا يفعل أعدائي بي؟ قتلي شهادة، وسجني خلــوة، وطــردي سياحة، في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة» وعندما سجن عليه رحمة الله وأودع الظلمات، قال : «فضرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة، وظاهرة من قبله العذاب» يظن الناس أنه في شقاء ونكد، وضيق وتعاسة، لأنه في قبضة الأعداء وتحت سطوة جبابرة ألداء، ولكن ما علموا أن الروح التي بين جنبيه لا يملكها إلا خالقها، ولذة الاتصال بالله وترطيب اللسان بذكره بينه وبين الله،

لا يستطيع أحد كائنا من كان أن يكون دخلاً بينـــهما، الـــدموع بالعين تشرق، والقلب بحلاوة اليقين يغرق، أوليـــاء الله لا خـــوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون.

إذا تصـــدع شمـــل الـــود بينـــهم
فللمحـــبين شمـــل غـــير منصـــدع
وإن تقطع حبـــل الوصـــل يومئـــذ
فللمحـــبين حبـــل غـــير منقطـــع

ويروي عنه تلميذه ابن القيم – رحمه الله – بقوله : كـــان – رحمه الله تعالى– إذا حلت به مصيبة أو نكبة، قرأ قـــول الله جـــل وعلا: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾[الفتح: ٤].

أما الحسن البصري رحمه الله: عندما أخرج من جرابه كسرة خبز يابسة، وكان في سفر قريبا من البحر، وغمسها بمـــاء البحـــر المالح ثم أكلها وتجرعها، وقال قولته المعروفة التي طالما ارتوت بهـــا قلوب العباد، واستطعمتها أفواه الزهاد والنساك، تشحذ الهمم نحو الطاعة، ونيل ولاية الله جل وعلا، وبلوغ تلك المرتبة العالية مـــن اليقين والإيمان، قال : «إنما في سعادة، لو علم عنها الملوك وأبنـــاء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف».

لقد خلوا ما بينهم وبين الرحمن فألبسهم الله نوراً من نـــوره، استشعروا بذل وانكسار ، وخضوع واستسلام قول الله جل وعلا:

﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد:٢٨].

قال صاحب الظلال رحمه الله: (تطمئن بإحساسها بالصلة بالله، والأنس بجواره والأمن في جانبه وحماه ، تطمئن من قلق الوحدة ، وحيرة الطريق، بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير، وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء، ومن كل ضر ومن كل شر إلا بما يشاء الله، مع الرضا بالابتلاء والصبر على البلاء.

* **أخي –رعاك الله–** (الطمأنينة بذكر الله في قلوب المؤمنين حقيقة عميقة، يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، فاتصلت بالله؛ يعرفونها ولا يملكون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخرين، لأنها لا تنقل بالكلمات وجميل العبارات، إنما تسري في القلب فيستروحها، ويهش لها ويندى بها ويستريح لها، يحس أنه في هذا الوجود ليس منفرداً وحيداً بلا أنيس، فكل ما حوله صديق، النور والظلمة، الأرض والجبال، السماء التي تظل، والأرض التي تقل، لأن كل ما حوله من صنع الله الذي هو في حماه، ليس أشقى على وجه هذه الأرض وفي خضم هذه الحياة، ممن يعيش لا يدري لم جاء وإلى أين يذهب، ولم يعاني ما يعاني في هذه الدنيا؟ ليس أشقى ممن يسير في الأرض يوجس من كل شيء خيفة، غاب عنه أن كل مخلوق وموجود على هذه البسيطة هو من صنع الله ، وأن الله له في كل شيء آية، يشق طريقه فريداً وحيداً، شارداً في فلاة، عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين).

يـــا منتـــهى وحشـــتي وأنســـي
كـــــن لي إن لم أكـــــن لنفســـــي
أوهمـــــــني في غـــــدٍ نجـــــاتي
حلمـــك عـــن ســـيئات أمســـي

* **أيها الأخ المبارك : المطمئنون بذكر الله**:هم التائبون المنيبون المستغفرون، الذين استجابوا لأمر الله ورسوله ﷺ.

المطمئنون بذكر الله: هم الذين أوتروا قبل نومهم، وقاموا من ليلهم ما شاء الله ، واستغفروا بالأسحار.

المطمئنون بذكر الله: هم الذين أرضوا خالقهم بتقواه، وعبادة بحسن الأخلاق، وكريم الخصال، وجميل الفعال.

المطمئنون بذكر الله: هم الذين تواضعوا لله فرفعهم، وأطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وأطابوا الكلام، وصلوا بالليل والناس نيام، وفي الآخرة وجدوا ما وعدهم الله ورسوله حقا، أن دخلوا الجنـــة بسلام، ﴿ **ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَـــاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ**﴾[ق:٣٤ ، ٣٥].

أخي الحبيب: إن نوعا من الطمأنينة أزبدت بها أفواه كثير من الناس، وأشربت بها قلوبهم، واستملحتها عقولهم، وصار ســعيهم وكدهم من أجلها، إن أعطوا منها رضوان وإن لم يعطــوا منـــها سخطوا، إنها الطمأنينة الموهومة، الخلود والركون إلى هذه الـــدنيا، كأنهم لم يعرفوا فناءها، وأن متاعها قليل، حرامها عقاب عنـــد الله يوم القيامة، وحلالها حساب في الدار الآخرة، تسر صاحبا بمســـاءة

صاحب، سرورها مشوب بالحزن ، وصفوها مشوب بالكدر.

لا تطمـــئن إلى الـــدنيا وزخرفهـــا
وإن توشحت مـــن أثوابهـــا الحســـنا
أين الأحبـــة والجـــيران مـــا فعلـــوا
أين الذين هم كـــانوا لنـــا ســـكنا
سقاهم الدهر كأســـاً غـــير صـــافية
فصـــيرتهم لأطبـــاق الثـــرى رهنـــا

قال المولى جل وعلا: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَـــى وَجْهِـــهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُـــبِينُ**﴾ [الحـــج:١١] ،قال ابن عباس رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية : كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم، فـــإن وجدوا عامهم عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن ، قالوا : إن ديننا هذا لصالح ، فتمسكوا به . وإن وجدوا عامهم عام جدوبة وعام ولاد سوء ، وعام قحط ، قالوا: ما في ديننا هذا خير . فنفوا الخيرية عن هذا الدين ، فأنزل الله على نبيه صلوات الله وســـلامه عليه: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ...**﴾.

واسمع يا رعاك الله ، إلى قول النبي ﷺ ، كما أخرجه الشيخان في صحيحيهما : «**الإيمان يمان ، والكفر قبل المشرق ، والسكينة في أهل الغنم، والفخر والرياء في الفدادين أهل الخيل والوبر**» ، فدل الحديث أن أهل الغنم هم ألين قلوباً ، وأرق أفئدة ، بسبب ما هم عليه من البساطة والكفاف، بعكس حال أهل الخيل والـــوبر ؛ الذين امتلكتهم المادة ، فاطمأنوا إلى زهرة الحياة الدنيا، فاستسمنوا

ذا ورم ، ونفخوا في غير ضرم.

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آَيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [يونس:٧ ،٨].

﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾[النحل:١١٢].

* **أما عند الموت** والمرء في إقبال على الآخرة ، في إدبار عـــن الدنيا ، تلك اللحظات المرة ، والدقائق الصعبة ، والروح تخرج من الجسد إلى إحدى الدارين، إما إلى الكرامة التي أعدها الله لأوليائه ، أو إلى الدار الأخرى ، نسأل الله النجاة والســـلامة، ففـــي تلـــك الأوقات ماذا عن الطمأنينة وأهلها؟.

يقول الرب تبارك وتعالى: ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾[الفجر:٢٧ -٣٠].

أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن كما في (الدر المنثور) أنه قـــال في تفسير هذه الآية: (إن الله إذا أراد قبض عبده المؤمن اطمأنـــت النفس إليه ، واطمأن إليها، ورضيت عن الله ، ورضي الله عنـــها، فأمر بقبضها فأدخلها الجنة، وجعلها من عباده الصالحين).اهـــ

وقال قتادة كما في (الدار) أيضاً: (هذا المؤمن اطمأن إلى مـــا وعد الله).

* **وللطمأنينة درجات** : كما يوضح ذلك ابن القيم رحمه الله : طمأنينة القلب بذكر الله، وهي طمأنينـــة الخـــائف إلى الرجـــاء، والضجر إلى الحكم، والمبتلى غلى المثوبة ، لأن الخائف إذا طال عليه الخوف واشتد به ، وأراد الله –عز وجل–أن يريحه ، ويحمل عنه ، أنزل عليه السكينة ، فاستراح قلبه إلى الرجاء واطمأن به ، وسكن لهيب خوفه.

* **وأما طمأنينة الضجر إلى الحكم فالمراد بها**: أن من أدركـــه الضجر من قوة التكاليف وأعباء الأمر وأثقاله، ولا سيما من أقـــيم مقام التبليغ عن الله، ومجاهدة أعداء الله، وقطاع الطريق إليه ، فإن ما يحمله ويتحمله فوق ما يحمله الناس ويتحملونه ، فلابد مـــن أن يدركه الضجر ويضعف صبره ن فإذا أراد الله أن يريحه ويحمل عنه أنزل عليه سكينته ، فاطمأن إلى حكمه الديني وحكمه القدري، ولا طمأنينة له بدون مشاهدة الحكمين.

* **وأما طمأنينة المبتلى إلى المثوبة**: فلا ريب أن المبتلى إذا قويت مشاهدته للمثوبة سكن قلبه، واطمأن بمشاهدة العوض، وإنما يشتد به البلاء إذا غاب عنه ملاحظة الثواب .اهـــ.

اللهم إنا نسألك توبة تبرد قلوبنا عند المـــوت، وراحـــة بعـــد الموت، ولذة النظر إلى وجهك الكريم في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

رياض بن سليمان السلطان

١٤٢١/٩/٢٦هـــ